

المسافر العنيد

مكتبة الطفل ... مكتبة الطفل ...مكتبة الطفل ... مكتبة الطفل ...مكتبة الطفل ٢٣ السلسلة التاريخية

المسافر العنيد



تأليف : شريف الراس
رسوم : محمد حجي



مَنْ هُوَ عبدُالعزيز الثعالبي ؟

قالَ الرّاوي ياسادةُ ياكرام :

إنّهُ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ مِنْ تونس وُلِدَ سنة ١٨٧٤ ، وسافَرَ في رِحلَةٍ طَويلَةٍ أستمرتْ حتىٰ عام ١٩٤٤ ، حيثُ تُوفي في تونس أيضاً .. وكانتْ رحلَتُهُ الطويلةُ الشاقةُ بحثاً عن كنزٍ أجمل من الشمْسِ .. كانَ يسافِرُ بحثاً عن حبيبةٍ أسمُها الوحدةُ العربيةُ .





حكايةُ الرجلِ القويّ

الذي يخافُ من جريدةٍ

خَرجَ خالي عبدُالعزيز مِن البيتِ غاضباً.

كان الوقتُ مساءً. وكانت زمرةٌ من الجنود الأجانب تطوفُ أزِقّةَ حَيِّنا الضَّيِّقةَ وتَقرعُ الأبوابَ بيتاً بيتاً. وكانوا أحياناً يُطلِقون نيرانَ بنادِقِهم إرهاباً.

- ماذا تُريدون؟

- على كُلِّ تونسيٍّ أنْ يُعَلِّقَ مِصباحاً مُضيئاً على بابِ دارِهِ.

- وإنْ لَمْ يكُنْ عِندَنا مِصباحُ نَفْطٍ؟

- أشعِلوا ثلاثَ شمعاتٍ كبيرةٍ. فالمهمُّ أنْ تظهَرَ مدينةُ تونس الليلةَ وكأنّها شُعلةٌ مِنْ نُورٍ.

كانت لُغَتُهُم رَكيكَةً ، ولهجاتُهم آمرةً . قالوا : في هذه الليلةِ يُولَدُ أولُ يومٍ من سنةِ ألفٍ وتِسعمائةٍ . الليلةَ ننتقِلُ إلى القرنِ العشرين . وسعادةُ الحاكم العامّ مُبتَهجٌ جِداً بهذهِ المناسبةِ التاريخيَّة ويُريدُ أنْ يَبْتهِجَ كُلُّ سُكّانِ تونس وأنْ يُعْلِنوا فَرَحَهُم .. وفي السهرةِ سَوفَ تُشاهدون أسهُماً نارِيَّةً جَميلَةً في سماءِ المدينَةِ .. الليلة عيدٌ عظيمٌ .

وحين قَرَعُوا بابَ بيتِنا خرجَ إليهم خالي غاضِباً ، وحين عَرَفَ ما يريدون أغْلَقَ البابَ في وجوهِهم وعاد وهو يزمجر :
«إلى الجحيم أنتم واحتفالاتُكُم وحاكِمُكُم العامُّ» .

سمِعْنا أصواتَ طَلقاتٍ نارِيَّةٍ في الزُّقاقِ أو «الزنقة» حَسَبَ تعبيرِ أهْلِ بَلَدِنا . وسَمِعْنا صراخاً أيضاً . ولكنَّ خالي عبدالعزيز ظَلَّ قاعِداً في البيتِ .
«لا بُدَّ أنْ نَطرُدَكُم مِنْ بِلادِنا أيُّها الأشقياءِ» .. كان لا يزال غاضباً . ولكي نحملَه على الهدوء ، قامت أمّي وأحضرت له فنجاناً من الشاي الأخضر .

أنا أُحِبُّ خالي عبدالعزيز كثيراً .
الشيخُ صالح ، إمامُ مَسجِدِ حَيِّنا الذي يُعَلِّمُنا جُزْءَ عَمَّ ، يَقُولُ لي دائماً :
- يامحمودُ .. كُنْ بَطَلاً مثلَ خالِكَ عبدِالعزيز الثّعالبي .

كُلُّ النّاسِ يَقولُون : «الثّعالبيُّ بَطَلٌ» .. وأنا أعرف أن البَطَلَ يَحْمِلُ سَيْفاً أو بُنْدُقِيَّةً . لكنّني ما رأيْتُ خالي مَرَّةً يَحْمِلُ سَيْفاً أو بُنْدُقِيَّةً .

سألْتُهُ : ماذا تَشْتَغِلُ يا خالي ؟
قال : صُحُفِيٌّ .. عندما أنْهَيْتُ دِراستي في جامعِ الزَّيتُونَةِ أصدَرْتُ جَريدَةً فأغلقَها الحاكِمُ العامُّ بَعْدَ أيامٍ .. فَعُدْتُ وأصْدَرتُ جَريدةً ثانِيَةً فأغلقوها أيضاً .

لمْ أكُنْ أدري أنَّ هؤلاءِ المُستعمِرِينَ الظالِمين ، الذينَ يَنْهَبُونَ خَيْراتِ بَلَدِنا ويُذِلُّونَ شَعْبَنا يَخافُونَ مِنَ الجرائِدِ كلَّ هذا الخوفِ ..



قُلْتُ لِإمامِ مَسْجِدِ حَيِّنا الشيخ صالح : الحاكمُ العامُّ الفرنسيُّ قويٌّ جِدّاً ، عِنْدَهُ جُنُودٌ كثيرون ومَعَهُم أسْلِحَةٌ فتّاكَةٌ .. فلماذا يخافُ مِن الجرائِد ؟

قال الشيخُ صالح : إنَّهُ لا يخافُ مِنَ الجرائِد يا محمود .. بَلْ يخافُ مِن كَلامِ خالِكَ عبدالعزيز الثَّعالبيّ بالذّات .. فهذا البَطَلُ الوَطَنيُّ النَّبيلُ يَعْرِفُ كيفَ يُنَبِّهُ الشَّعْبَ إلى ألاعيبِ المُسْتَعمر ويَفْضَحُ مُؤامَراتِهِ . وهُوَ

يَدعُو إلى مُقـاوَمَةِ هذا المُحتَلِّ الأجنَبِيِّ وَطـردِهِ مِنْ بِلادِنا . وَهُوَ يُوقِظُ النّاسَ إلى حَقِّهِم في الحياة الحُرَّة . فَتُونسُ للتونسيّين ولَيْسَتْ للفرنسيين أو غَيرِهِم . ونَحنُ شعبٌ حَيٌّ وأحفادُ أجدادٍ عِظامٍ كَنَبِيِّنا العَرَبيِّ وَعُمَرَ وعَلِيٍّ وسَعْدٍ وعُقْبَة وخالِدٍ وصلاحِ الدّين .. فكيفَ نرضى بأنْ نَكونَ عَبيداً ؟ .. خالُكَ يا محمود يدعو إلى المقاوَمَةِ ، إذنْ مِنَ الطَبيعيِّ أنْ يُغلِقَ المستعمِرونَ جَريدَتَهُ .. لكنني أعرِفُ صَلابَةَ خالِكَ . إنّهُ لَنْ يَستَسلِمَ . ومِنَ المؤكَّدِ أنّهُ الآنَ يُفكِّرُ في إصدارِ جَريدَةٍ ثالِثَةٍ .

أعجَبَني كَلامُ الشيخ صالح . لكنني بَقيتُ قانِعاً بأنَّ البَطَلَ هُوَ الذي يَكُون مِثْلَ عَنتَرة بن شَدّادٍ ، بِيَدِهِ سَيفٌ بَتّارٌ يَقْهَرُ به كُلَّ الظالمِينَ ، أو مِثْلَ سَعدٍ البَنّاني بَطَلِنا الشعبيِّ العَظيم .



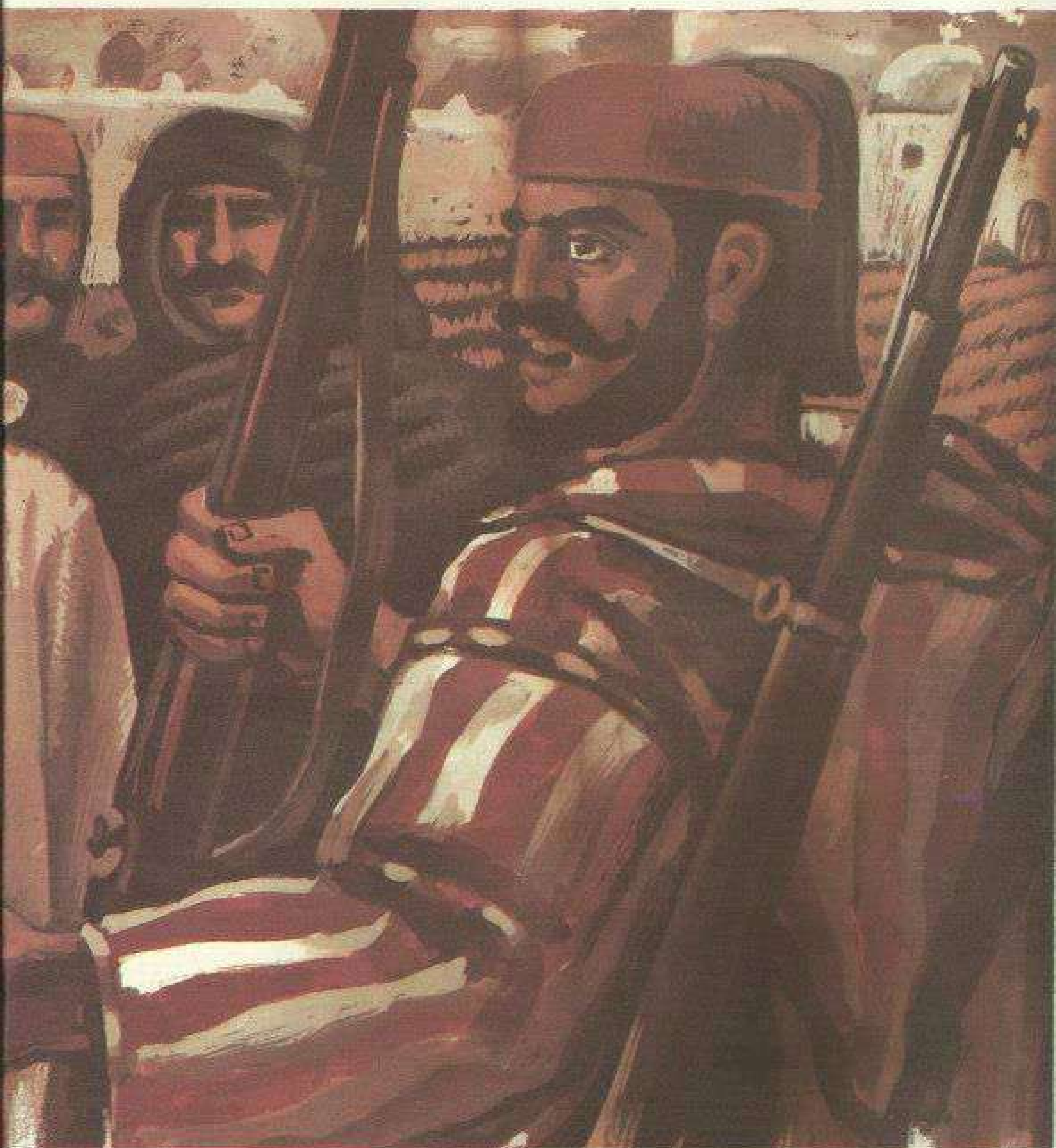


أجملُ الأغاني
لِسعَدِ البناني

ذاتَ مساءٍ، في شهرِ رمضـان، ذهبْتُ معَ أطفالِ الحيِّ الى مقهى الحكواتي. كُنّا نحمِلُ قناديلَ ملوّنةً، وشموعاً مضاءةً، وحلوى، وكنّا نُغنّي في الطّريقِ أغنياتٍ عن رمضانَ الجميل. وكان الحكواتي جالِساً على كُرسيٍ مُرتفعٍ فوقَ مصطبةٍ في صدرِ المقهى. وكانَ بينَ يديْهِ كِتابٌ كبيرٌ لكنّهُ لمْ يفتحْهُ، وإنّما كان يتحدّثُ إلينا مُباشرةً. قالَ:

عِنْدنا في قَرْيَةِ «بنان» يا سادةُ يا كِرام ينبوعُ ماءٍ لَطيفٌ، وبساتينُ زيتونٍ وخوخٍ ورُمّان، وبُيوتٌ جميلةٌ بَيْضاء، وعَرائِشُ ياسمين، ونوافذُ زرقاءُ وخضراءُ تُطِلُّ منها أزهارُ الفُلِّ العَطِرةُ، وحكاية.. بَلْ إنَّ أهمّ ما عِنْدنا في قريةِ بنان، في الجبلِ، هُوَ هذهِ الحِكايةُ..

قالَ الرّاوي يا سادةُ ياكِرامُ: كانَ عِندنا في قَريَةِ بنان شابٌ فقيرٌ اسمُهُ «سَعْدٌ»، تَركَ القريَةَ لِشدّةِ فقرِهِ وسافرَ الى العاصِمَةِ تونس طَلَبا للرزق.



ذَهَبَ وَلَمْ يَرْجِع. قال بعضنا لبعض: يا جماعة .. سَعْدٌ نَسِيَنا وَلَمْ تَصِلْنا مِنْهُ حتى ولا رِسالَةٌ. وقُلْنا: رُبَّما لأَنَّهُ لا يَعْرِفُ الكتابَةَ ..

وهكذا، على ما يَبْدو، نَسِيناهُ نحنُ أيضاً .. لذلِكَ فإنَّنا - يا سادةُ يا كرام - فُوجِئْنا عِنْدَما عادَ إلينا ابنُ قَرْيَتِنا سَعْدُ. جاءَنا ذاتَ ليلةٍ مِنْ ليالي عام ١٨٨١ وهو يَحْمِلُ عَدَداً مِنَ البَنادِقِ ويقولُ لنا: قوموا .. قوموا ..



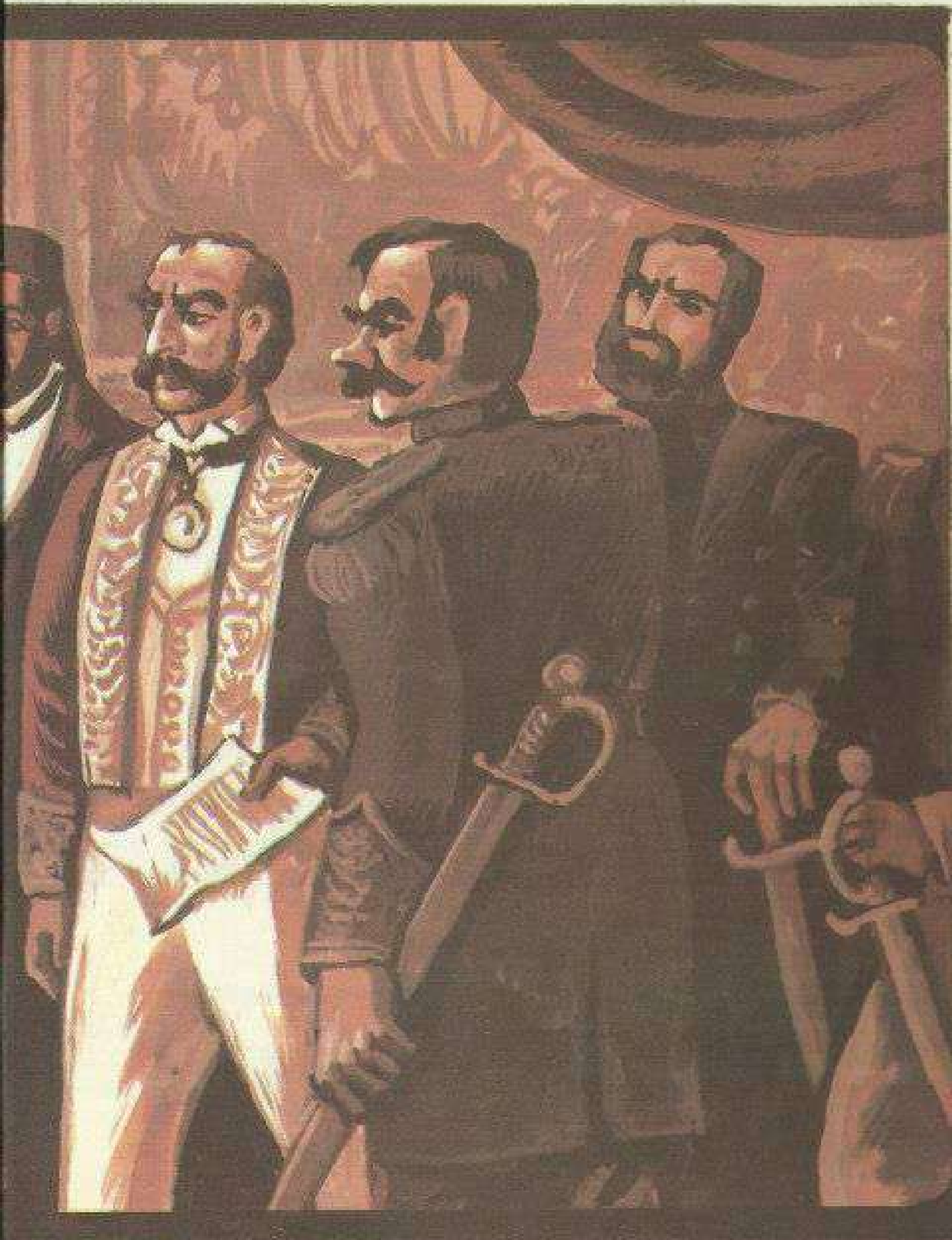
- إلى أينَ نقوم يا سَعْدُ؟

- قوموا إلى الثورةِ .. انْهَضُوا .. أفيقُوا .. حَيُّوا على الكِفاحِ . فَمَلِكُ البِلادِ الخائِنُ (باي تونس) يُريدُ أنْ يُسَلِّمَ البلادَ للأجانِبِ . لذلك فإنّني ، وَقَدْ كُنْتُ جُنْدِيّاً في جَيْشِهِ ، انْسَحَبْتُ وجَلَبْتُ هذهِ البنادِقَ من ثُكناتِهِ .

قُلْنا له مستغربين : ولكنْ ماذا أبقى هذا المَلِكُ الجبانُ في أيْدِينا ولَمْ

يُسَلِّمَهُ لأولئكَ الأجانِبِ ؟ .. فالأراضي الزراعيةُ صارَتْ في أيدِيهم . والمدارسُ صارَتْ بِلُغَتِهِم الفرنسيّة . والمصانِعُ والشّركاتُ الكُبرى لَهُم وَخَدَمُهم .. فماذا يُرِيدُون أكثَرَ مِن هذا ؟

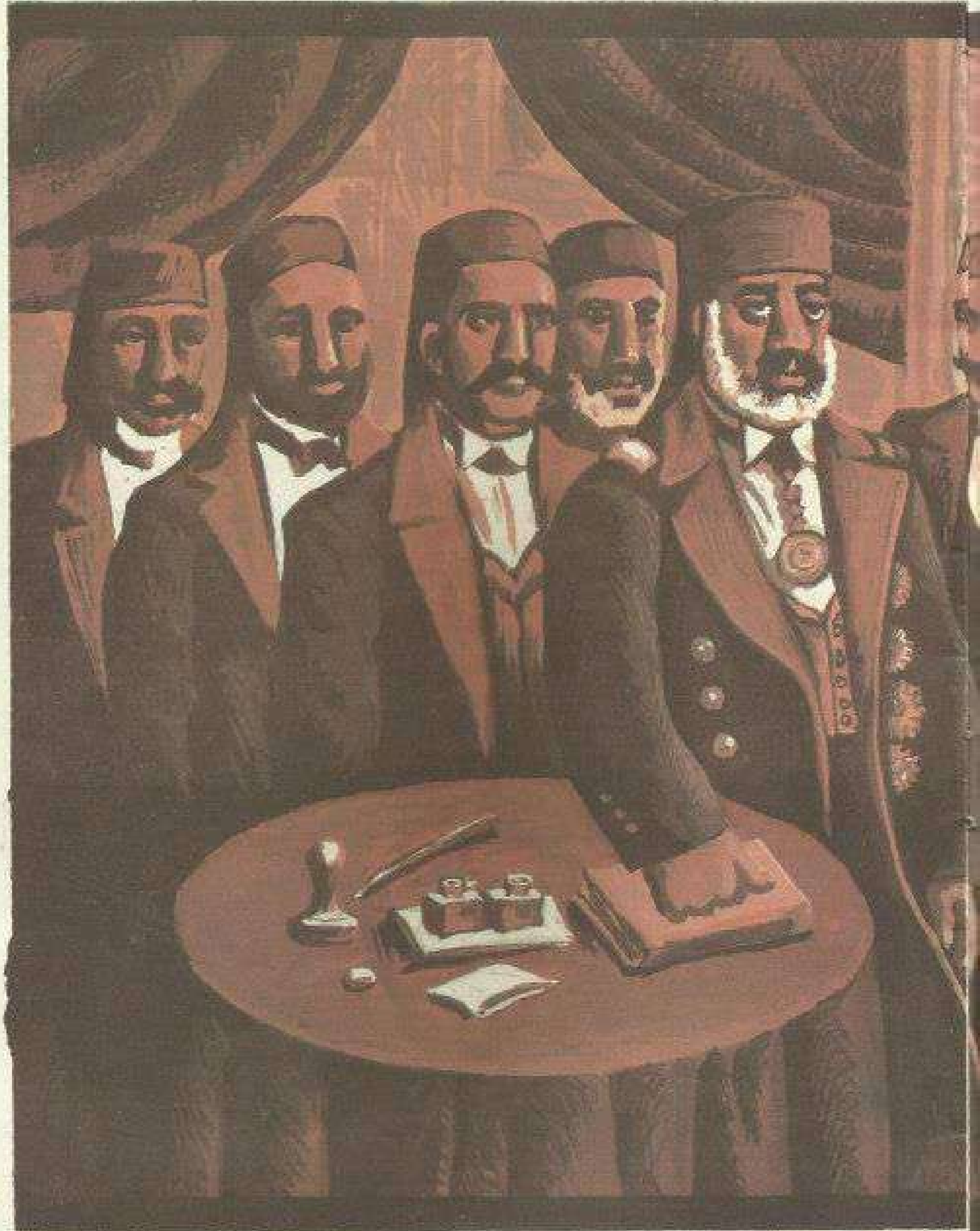
قال سَعْدٌ : يُريدون مِن الباي العاجِزِ أنْ يُوَقِّعَ وَثيقَةً رَسميّةً بِذلِك . يُسَمُّونَها «مُعاهَدَة» .



فَصَرَخْنا : لكنَّ هذا ظُلْمٌ وعُدْوانٌ . هذا احتِلالٌ . هذا استعمارٌ يجبُ أنْ نُقاوِمَهُ .

قالَ سَعْدٌ : رائعونَ أنْتُم يا أبْناءَ قَرْيتِنا .. عَرَبٌ أحرارٌ أنتم يافلاّحي تونس .

قالَ الرّاوي يا سادَةُ يا كرام : البطلُ سَعْدٌ أشْعَلَ نيرانَ ثَوْرَةِ الفلاّحِين العظيمة . كُلُّ رِجالِ «بنان» انْضمّوا إليه . وسرعانَ ما آلتفَّ حَوْلَهُ أكثرُ



من ستةِ آلاف مُجاهدٍ مِنْ أبناءِ قُرى منطقَة الساحِلِ جَميعاً . وبَدأوا حركة مُقاومَةٍ عنيفَة وضاريَة .

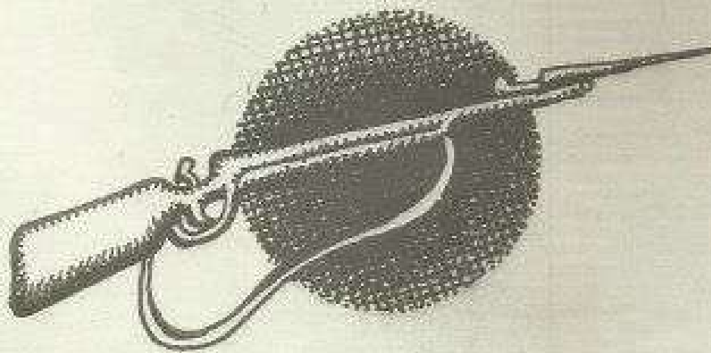
كانَ الملكُ الخائنُ قد وَقَّعَ على وثيقَة الاستسلامِ التي أسمَتْها فرنسا «معاهدة ١٨٨١» . وبمُوجبها أنزلَتْ في أرضِ تونس قوّاتٌ عسكريَّةٌ ضخْمَةٌ . لكنْ ثوارَنا الأبطال تصدّوا لأولئكَ المحتلّينَ في معاركَ عظيمةٍ .. وخسائرُ العَدُوِّ كانَتْ تَزدادُ يوماً بَعْدَ يَوْمٍ .. ودَعْمُ الثورة كان يزداد يوماً بعد يوم .. كُلُّ أبناءِ المُدُنِ التُونسيَّةِ ألتفّوا حوْلَ الثورَةِ وأمدّوها بالرّجالِ والمالِ والسّلاحِ . وسَعْدُ البناني صارَ نَشيداً وَطَنِيّاً .

قالَ الرّاوي يا سادَةُ يا كِرامُ : وذاتَ يومٍ فوجِئْنا بِقواتٍ فرنسيّةٍ كبيرةٍ تحاصِرُ قريَتَنا الجميلَةَ وتأمُرُنا بالجَلاءِ عنْها .. قالَ مُترجِمُهُم : كُلُّ الرّجالِ والنّساءِ والأطفالِ عليهم أنْ يُغادِروا قريةَ بَنان .. كلهُم جميعاً .

- إلى أينَ ؟

- إلى القيْرَوان .

وأخَذُونا إلى مدينةِ القيْرَوانِ مَشياً على الأقدامِ . وهُناك في مَيْدانٍ عامّ مليءٍ بالجماهير المحتشِدَةِ جَلبوا الأسيرَ «سعداً» وأعدَمُوهُ أمامنا .. كانَ يوماً رَهيباً جِداً .. لكنَّ البطلَ سعداً عاشَ في القلوبِ إلى أبدِ الآبدين .

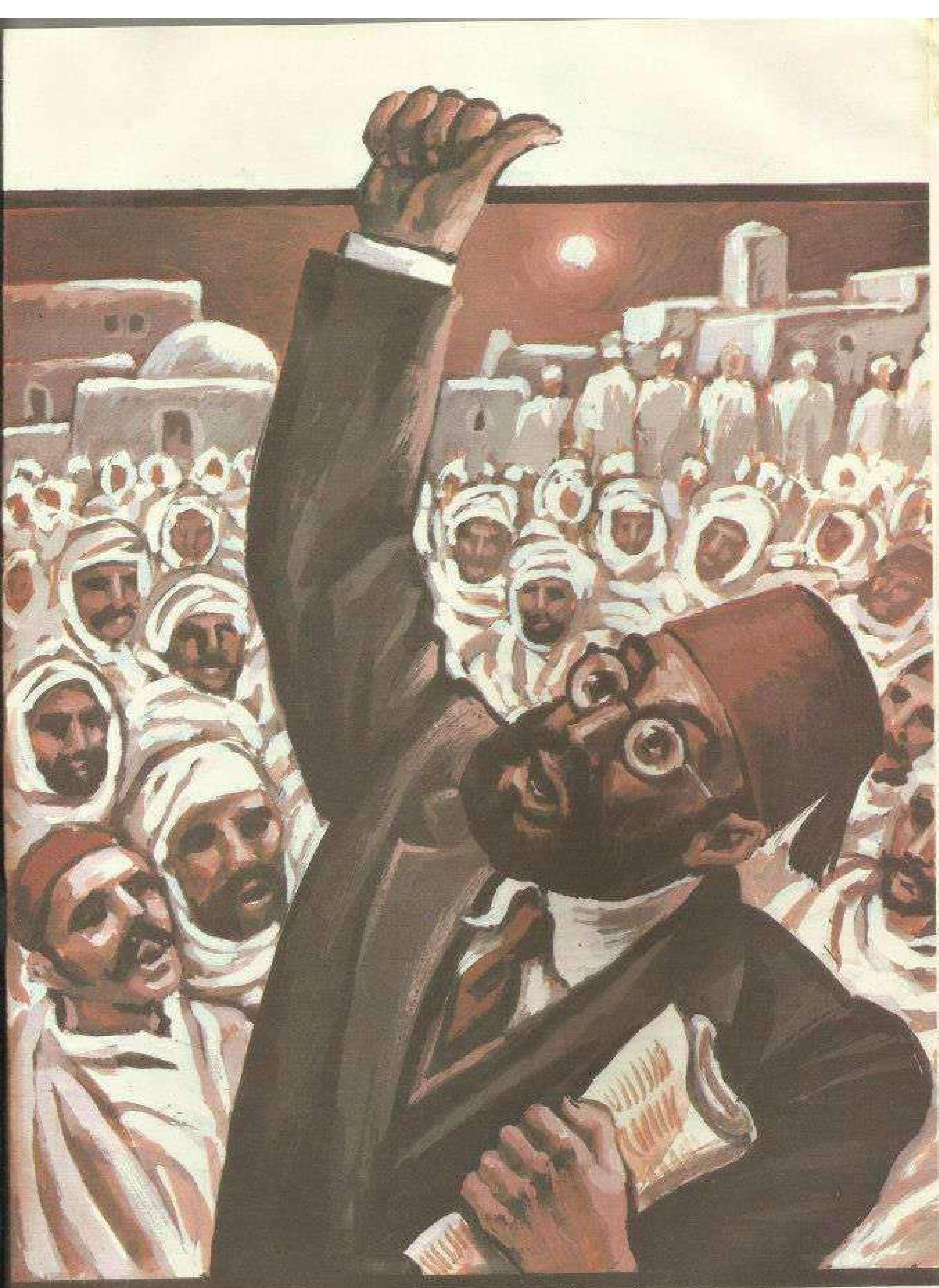




حكايةُ الرجُلِ الذي
يبْحثُ عَنْ شغْلِهِ

مرّتْ سَنةٌ.

حينَ أكْبرُ سوفَ أفعلُ مثْلَ خالي عبدالعزيز. سوْفَ أطلقُ شَعْرَ لِحْيَتي، وأرْتدي طربوشاً أحمر وثياباً عصريّةً أنيقةً وأقِفُ فوقَ مكانٍ مُرتفعٍ في أكبرِ ساحةٍ بتونس ألقي الخِطاباتِ الوطنيّةَ الحماسيّةَ الرائعَة. والناسُ الكثيرون الذين غصّتْ بهم السّاحة الواسِعَة يُهلّلونَ ويُكبّرونَ ويُصفّقونَ ويهتِفُون: «يَحيا الوطن».. يَحيا الوطن. والنّساءُ تُزغْرِدُ مِن شُرُفاتِ المنازِل، والأطفالُ يُقدّمونَ باقاتِ الوردِ للخطيب العظيم عبدالعزيز الثّعالبي. والرجالُ يقولون: ما أحسنَ بلاغةَ هذا الرجلِ وما أجملَ كلامَهُ الذي يُثيرُ النّخْوةَ والحَمِيّةَ في القلبِ ويزيدُ الوَعْيَ والمَعرِفَةَ في الفِكْرِ.. سُبحانَ الذي وَهَبَهُ هذهِ القدرةَ العجيبة على الخَطابَةِ البَليغَة.. إنّ عبدالعزيز الثّعالبي يَستَطيعُ أنْ يَستَمِرَّ في الخَطابَةِ سِتّ ساعاتٍ، لا يَتْعَبُ ولا يَزِلُّ لِسانهُ، بَلْ يَظلُّ يُحدّثُ النّاسَ بأجملِ الكلامِ: ياقومُ ياقومُ..



كنتُم خَيْرَ أمّةٍ أخرِجَتْ للنّاسِ .. يا قومُ يا قومُ .. أنتُمْ أهلُ الحضارة ورُوّاد التّقدّمِ والحُرّيّةِ .. يا قومُ يا قومُ ..

وأهلُ تونسَ يُهلِّلونَ ويُكبِّرونَ ويَهتِفون بحياةِ الوطن وتَعلُوا أصواتهم بعباراتِ التحيّةِ للخطيبِ المُبدع والثناء عليه .. وبعضهُم يُلوّحُ للخطيبِ بنُسخةٍ من جريدَتِه. فخالي نَفّذَ قرارَهُ وأصدَرَ جريدةً ثالِثةً، مُتحدياً عساكرَ الأجنبيِّ المستعمِرِ، الذين يُسَمّيهم «البشعين» داعياً إلى طردِهم من البلادِ وتحرير أرضِنا وتحقيقِ الاستقلال ... والجريدةُ تَتّسعُ انتشاراً يَوماً بعْدَ يَوْم. ورَسائلُ الإعجاب تَصِلُ إلى خالي مِنْ مُدُنِ تُونس جميعاً، ومِنَ الجزائرِ والمغرب وليبيا .. وأصدقاءُ خالي يُخبِرونَه هَمْساً بأنّ عَيْنَ الحاكم العامّ قد أحمرّتْ عليهِ. وأنّه يزدادُ غَضَباً عليهِ وعلى جريدته وخطاباتِهِ الوطنيّة الحماسيّة، وأنّ هذا المستعمر الظالم المستبِدّ لا بُدّ أنْ يَبْطِشَ به.

وخالي بدَلاً مِنْ أنْ يَضطرِبَ أو يخاف يَعرِضُ على أصدقائِهِ بعضَ رسائل القُرّاء .. إنهم جميعاً يكتبون إليه: إمضِ إلى الأمام ونحنُ مَعَكَ .. كُلُّ شعبِنا مَعَك.

ولكنَ مَنْ هُوَ شعبنا؟

هكذا صارَ خالي يفاجِيء أصدقاءَهُ بهذا السؤالِ عندما كانت تدورُ المناقشات بينَهم في الأيّام الأخيرة وأنا لا أفْهَمُ هذه المناقشاتِ. وإنما أفْهَمُ أنّنا ما دُمْنا نحنُ أبناءَ تونس إذَنْ فنحنُ الشعبُ التونسيُّ .. وهذا أيضاً رأيُ أصدقاء خالي. وهُم مِثلهُ رجالٌ مُثقّفون. ولكنّ خالي بدأ في الآونَةِ الأخيرةِ يُبْدي رأياً آخرَ لمْ أفهَمْهُ أول الأمر. كان يقول: نحنُ أبناءُ شعبٍ أكبر من حدود تونس بكثيرٍ .. نحنُ في تونسَ وفي الجزائرِ وفي المغربِ أبناءُ شعبٍ واحدٍ .. شعب عربيٌّ مسلم له لغةٌ واحدةٌ وتاريخٌ واحِدٌ وتقاليدُ واحِدةٌ، ولهُ قضيّةٌ واحدةٌ. وهذا هُوَ المهمُّ.

فيقولُ أحَدُ زملائِهِ: صَحيحٌ أنّ لنا قضيةً واحدةً .. لأنّ الاستعمار الفرنسي البغيض موجودٌ بذاتِهِ في تونس والجزائرِ والمغرب .. لكنْ هل لأنّ عَدُوّنا واحدٌ في هذه البلدانِ الثلاثِ نكونُ نحنُ شعباً واحداً؟!

ويسألُهُ صديقُهُ الشيخُ صالح: يعني هَلْ نفهَمُ من كلامِكَ يا شيخُ عبد

العزيز يا ثعالبيُّ بأنَّ ثورةَ سعد البناني العظيمة في تونسَ قد فَشِلَت لأنَّها لم تَقُمْ مَعَها ثوراتٌ مماثِلَةٌ، في الوقتِ ذاتِهِ، في كلٍّ من الجزائر والمغرب؟.

يُجيبُهُم خالي: ياجماعةُ افهموا قَصدي.. فأنا أصبحتُ أزدادُ يَقيناً يوما بَعْدَ يَوم بأننا في تونس لَسْنا شعباً منعزلاً، بَلْ نَحْنُ جُزْءٌ مِنْ أمّةٍ كبيرةٍ، أمّةٍ عظيمةٍ.

وكانَ كلامُ خالي يُثيرُ الحَماسة في صُدورِ مُسْتَمِعيه، فَتَنْهالُ عليه أسئِلَتُهم من كُلِّ صَوْب. عندها كانَ خالي يقول لهم وهو يضحك: «لن ينتهي الحِوارُ أمهِلوني قليلاً ريثما أشْرَبُ الشاي».

فيقولُ الرِّجالُ الذينَ يُحِبّون خالي: «أمْهَلناكَ».. ويَشرَبون الشايَ.

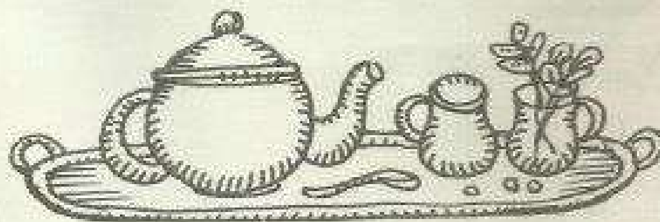
غير أنَّ الحاكِمَ العامَّ، الطاغِيَةَ، لم يُمْهِلهُ. فقد داهَمَ جُنودُ الاحتلالِ البَشِعونَ مكْتَبَ الجريدةِ، وصادَروا كلَّ ما فيها. وأغْلَقوها، واعتقلوا خالي وأبلغوه قَراراً بِنَفْيِهِ خارجَ البلادِ.. ما أغربَ هذا القرارَ الظالم العجيب! بأيِّ حَقٍّ يُطْرَدُ إنسانٌ مِنْ وَطَنِهِ؟

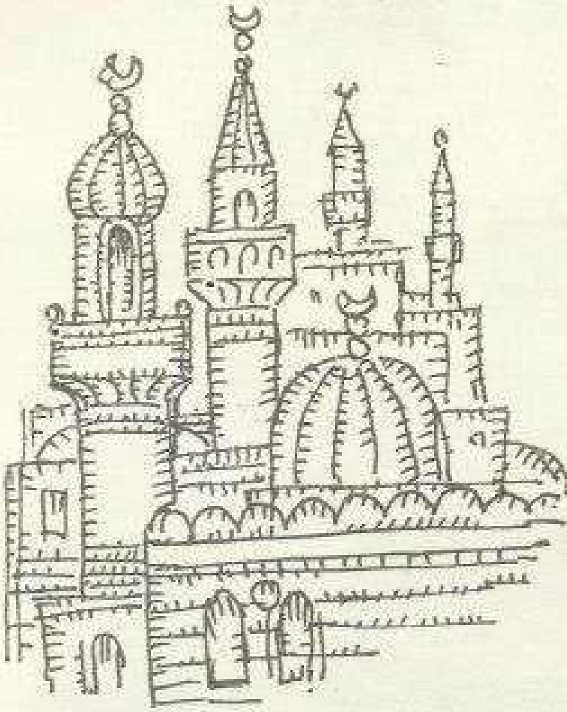
ضَحِكَ خالي وقالَ لنا، ونحنُ نُوَدِّعهُ في ميناءِ تونس: لو أنَّ هذا الحاكِمَ الأجنبيَّ الأبْلَهَ قَرَأَ التاريخ وعَرَفَ مَنْ نحنُ، لما قرَّرَ إبعادي إلى مِصر.. فَهوَ يَظُنُّ أنّهُ يَقْهَرُني إذ يُبْعِدُني عن وَطَني، معَ أنَّ مِصر مثلُ تونس: وطني.

ومَضَتِ السَّفينَةُ ولوّحْنا بأيدينا مُوَدِّعِينَ. كان ذلك في عامِ ١٩٠١.

وكانتْ تلكَ أولى رِحلات خالي.

ليتَني استَطَعْتُ السَّفَرَ مَعَهُ..





خَبِّرْنا ياشَيخُ عبدالعزيز:
ماذا اكْتَشَفْتَ في مِصر

جاءَ الرَّبيعُ .. ومدينتنا تونس الجميلةُ صارَتْ مليئةً بالأزهارِ .. وجاءَ عيدُ المولدِ النَّبويِّ في عزِّ الرَّبيعِ . أَخَذْتُ معي من البيتِ باقة وَرْدٍ لأُقدِّمَها إلى الشيخِ صالح الذي صار يُعلِّمُنا في المسجدِ جُزءَ «تبارَكَ» . الشيخُ صالح فَرِحَ بهذِ الهديَّةِ ونَهَضَ مِنْ مَكانِهِ في زاويَةِ المسجدِ ومشى معي بَعيداً عن رِفاقي الأطفالِ وهَمَسَ في أُذُني قائلاً :

- ما رأيُكَ يا محمودُ أنْ آخُذَكَ معي لزيارةِ خالِكَ ؟

فقلتُ مُنْدَهِشاً : إلى مصْر ؟

قالَ هامِساً : بَلْ إلى مكانٍ قريبٍ .. هنا .. في تونس .. فخالُكَ بَعْدَ أنْ عاشَ في مِصر بضعةَ أشهُرٍ رَجَعَ مُتَسَلِّلاً إلى تونس ، ودَخَلَها خفيَةً ، فاعتَقَلَهُ المستعمرونَ ، وزَجُّوا به في السِّجْنِ .

فقلت غاضباً : لعنةُ الله على المستعمرين .. إنّهم أعداؤنا .

وبَعْدَ ساعَةٍ كُنّا عِنْدَ خالي الذي فَرِحَ بنا كثيراً. أجلَسَني في حِضْنِهِ وقال لي:

ـ أنتَ تُحِبُّ قِصّةَ البَطَلِ سَعْدٍ البناني .. أليس كذلك يامحمود ؟ .. لقد جَلَبْتُ لكَ معـي من مِصر حكاياتٍ كثيرةً عن أبطالٍ عظامٍ من أمّتِنا يُشْبِهون سعداً البناني ..



ثمَّ آلتفتَ الى الشيخ صالح وقالَ لهُ:

ـ أتدري يَاصديقي ماذا اكتَشفْتُ في مِصْرَ ؟ ... اكتشفتُ أننا لسنا وَحْدَنا الذينَ نُعاني ممّا نَحْنُ فيه .. عِندَنا في تونسَ ظُلْمٌ مُتَجَسِّدٌ بالاستعمار الفرنسيّ .. وعِندنا في مِصرَ ظلمٌ مُماثِلٌ مُتَجَسِّدٌ بالاستعمارِ البريطاني .. وفي القاهرةِ، وفي أروِقَةِ الجامعِ الأزْهَرِ لَقِيتُ أخواناً عَرَباً من سائرِ أقطارِ وَطَنِنا الكبيرِ .. ومِنْ أحاديثِهم صِرْتُ واثِقاً كلَّ الثِّقَةِ مِنْ صِحّةِ نَظَريّتي

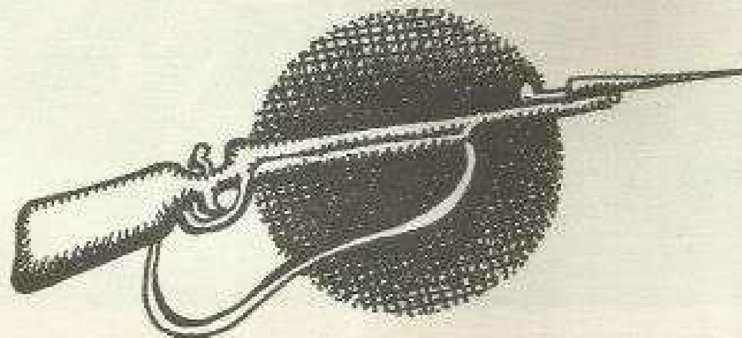
التي كنتُ أحدّثُكم عنها في الفترةِ الأخيرة : يا شيخُ صالحُ نحنُ العرب أمةٌ واحدةٌ .. الشعبُ نفسُهُ .. التاريخُ نفسهُ .. اللغةُ ذاتُها .. العاداتُ والتقاليد نفسُها .. نحنُ أينما وُجِدْنا في أقطارِ هذا الوطنِ الكبيرِ أخوةٌ فيما بينَنا .. أخوةٌ .. ننتمي إلى أمةٍ عظيمةٍ كبيرةٍ ... أكبَرَ مِنْ تونس بكثيرٍ .. وأنا سعيدٌ جداً بوحدةِ قضيّتنا يا شيخ صالح .. سعيدٌ جداً .. وأنتَ ؟ .. ما رأيُكَ ؟

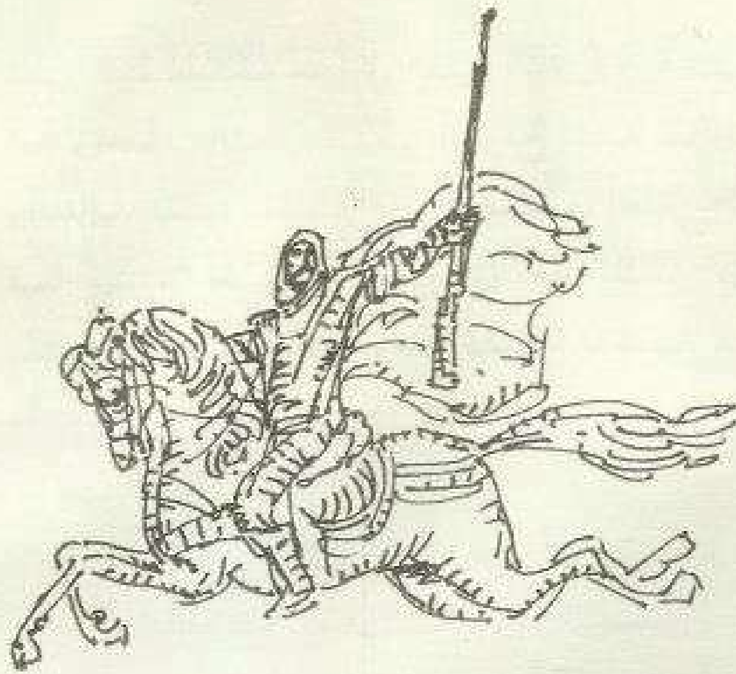
قال الشيخُ صالح : أنا خائفٌ .

ضَحِكَ خالي وقالَ : ما أعْجَبَ أمرَكَ ؟ .. مِمَّ أنتَ خائفٌ ؟

قال : أنا خائفٌ عليك ياعبدالعزيزِ الثعالبي .. إذا كانَ عدونا المستعمرُ قد غَضِبَ عليكَ كلَّ هذا الغضب لأنّكَ تُطالِبُ باستقلالِ تُونس ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ بِلادِ العربِ ، فماذا سيفعلونَ بِكَ حينَ يَسْمَعونَ رأيَكَ الخطيرَ هذا الذي يَعني استقلالَ كُلِّ بلادِ العَرَب .. فالأجانِبُ المستعمرونَ ، ياعبدالعزيز ، يعرفونَ جَيّداً أننا إذا تَوَحَّدْنا ، نحنُ العرب جميعاً ، فسنُصْبحُ دولةً قويّةً جِداً . وهذا خَطَرٌ عَلَيْهم . ولذلِك فإنّهم يَعْمَلُون على تفتيتِ وَطَنِنا الواحِدِ وتجزئةِ السُّكانِ الى جماعاتٍ جماعاتٍ .. لن يَتْرُكُوكَ حُرّاً يا عبدالعزيز .. سَيظلّون يلاحِقونَك ويطاردونك .. وخوفي أن تقضي عُمركَ في سَفَرٍ .. هذهِ المرّةَ أبعدوكَ إلى مِصْرَ .. لكنْ بَعْدَ دَعْوَتِكَ للوَحْدَةِ العربيّة قد تُضطرُّ الى السَّفَرِ كثيراً وإلى بلادٍ بَعيدَةٍ ..

ضَحِكَ خالي وقال : في هذهِ الحالة تُؤلّفُ أنتَ عن رِحلاتي السُّندبادِيَةِ كِتاباً بعُنْوانِ « الرجلُ الذي سافَرَ كثيراً » ..





ما أعظمَ شعْبنا

وبالفعلِ ، فَقَد صَحَّتْ على خالي صِفَةُ «الرجلُ الذي سافرَ كثيراً» .. وكانتْ رِحلتهُ الثانية إلى ليبيا . حَدَثَ ذلكَ بَعْدَ عَشرِ سنواتٍ ، أي في سَنَةِ ١٩١١ . وأنا الذي أصبَحتُ شاباً صِرْتُ أسْمعُ في مجالسِ تونس حكاياتٍ تصلُ إلينا من ليبيا ، مماثِلَةً لحكايَةِ البطلِ سعدِ البناني .. حكاياتٍ رائعةً عن بطولاتٍ خارِقَةٍ أبداها أهلُ ليبيا في مقاوَمَةِ الغـزو الإيطالي .. لكنَّ خالي لم يَكْتَفِ بسَماعِ الحكاياتِ .. بَلْ قامَ يجمعُ المعـوناتِ والأموالَ والأسلحة من تونس ويُرسِلُها إلى المجاهدين في ليبيا .. وخـالي يواصِـلُ طَلَبَ التبرُّعاتِ والنّاسُ يقدّمون له أكثر مما يطلُب . وخـالي يقـولُ منتشياً : ما أعظم شعْبنا .. ما أعظم شعْبنا !!

فسألتُهُ : تقْصِدُ شعبنا هنا في تونس يا خالي ؟

فيقـولُ : النّاسُ هنا في تونس هُمْ شَعْبنا .. والنّاسُ هناك في ليبيا هم شَعْبنا .. والعـربُ في كلّ مكانٍ هُمْ شَعْبنا .. أمَا آنَ لكَ أنْ تَعِـيَ هذا يامحمود ؟

قُلتُ : ولكنَّني أستغرِبُ يا خالي .. إذا كانَ الغُزاةُ الجُدُدُ الذينَ يُريدون احتلالَ ليبيا هُمْ إيطاليون .. أيْ ليسوا فرنسيين .. فلماذا يضربُ المستعمرون الفرنسيون عِندَنا هنا ، بِيَدٍ من حَديدٍ ، كُلَّ تونسيٍّ يُريدُ أنْ يُقَدِّمَ أيَّةَ مساعَدَةٍ لمجاهدي ليبيا الذين يَتَصَدَّوْن للغزوِ الإيطالي ؟

قالَ خالي : المسألةُ واضِحَةٌ يا محمود .. فإذا تمكَّنَ أبناءُ شعبِنا في ليبيا أنْ يُحقِّقوا استقلالَ بَلَدِهم فهذا سيُؤَدّي إلى تحقيقِ استقلالِنا هنا في



تونسَ .. لأنَّ حُرِّيَّةَ أيِّ قُطرٍ من وطنِنا الكبيرِ هي دعم للنضـال من أجـل تحرير أقطارِ وَطَنِنا الأخرى .. وإنَّ انتِكاسَةَ أيِّ قطرٍ تُضعف قوةَ النضـال في أقطارنا الأُخرى .. هذا شيءٌ يُدرِكُهُ جيّداً الأجانِبُ أعداءُ أمّتِنا ..

وقال خـالي : الشيء الأكيدُ هو أنَّ تحَرُّرَ ليبيا مِنَ المسـتعمرين الإيطاليّين سيكونُ بِدايَةً لتحريرِ تونس مِن المستعمرين الفرنسيّين .

قُلتُ بِوَجَلٍ : وإذا فَشِلَتْ ثورَةُ شعبِنا في ليبيا لا سَمَحَ الله ؟

قالَ خالي : آنذاكَ .. يالُطفَ الله .. يا لُطفَ الله ..

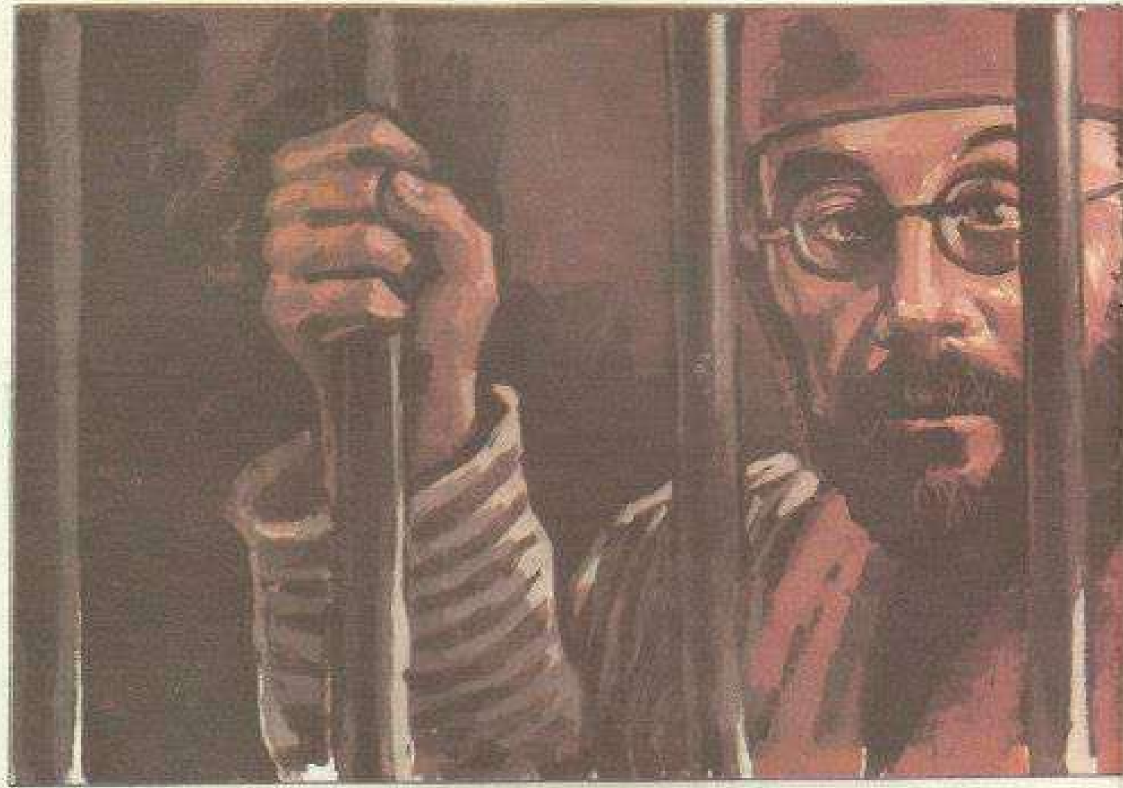


س : وماذا جلَبْتَ مَعَكَ مِنْ ذلك المؤتمرِ يا شيخُ عبدالعزيز ؟

ج : جلَبتُ هذهِ القيودَ الحديديّةَ التي تُكَبِّلُ يَدَيَّ .

قالَ الرّاوي : في عام ١٩١٩ أعيدَ الثّعالبي مِنْ مؤتمَرِ الصُّلحِ إلى تونسَ مُعْتَقلاً مُكبّلاً بالحديدِ .. وزجَّ به في السِّجْنِ .

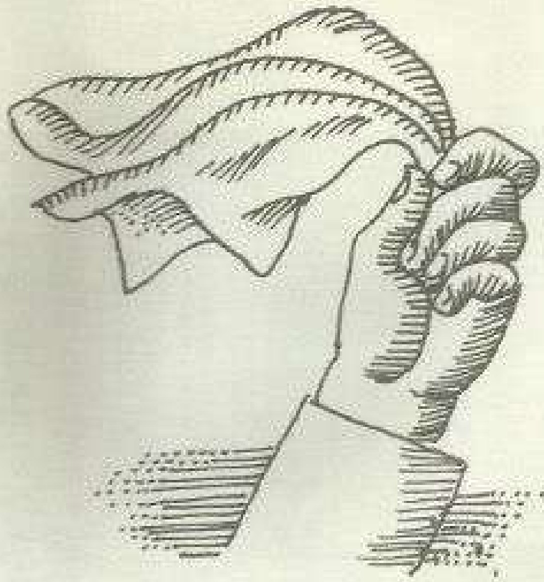
قُلتُ للثعالبي : هل أدركْتَ الآن ياسيدي بأنَّ الطريقَ لاستردادِ الحقِّ المغتصَبِ يَمُرُّ مِنْ فوّهَةِ بُنْدُقِيةٍ ؟ هل تتذكَّرُ ثورةَ سعدِ البناني وما تَبِعَها مِنْ ثَوْراتٍ شعبيّةٍ مُسلّحةٍ رائعَةٍ ؟ هل آمنتَ الآنَ بأنَّ هؤلاءِ المحتلّين الظّالمين لا يَفْهَمون إلاّ لُغَةَ الرّصاصِ ؟



قالَ الثَعالبي : هذا صحيحٌ .. المستعمرون ـ لأنّهم أعداءُ الإنسانيَّة ـ لا يفهمون غَيْرَ لُغَةِ الرَّصاص .. ولكنْ يَجِبُ أنْ يَكونَ وراءَ الثورةِ المسلَّحَةِ تنظيمٌ .. عَقْلٌ .. نَظْرَةٌ شامِلَةٌ للأمورِ .. بِاختصارٍ : حِزْبٌ .

قال الراوي : وأسس الشَّيخُ عبدالعزيز الثَعالبي حِزباً وَهُوَ في سِجْنِهِ بِتونسَ .. وسَمِعَ النَّاسُ بمبادِىءِ الحزبِ فأعجَبَتْهم كثيراً وأعلنوا إيمانَهم بها . وكانَ في جملةِ تلكَ المبادِىءِ أنّ «العربَ أمّةٌ واحدةٌ ولا بدَّ أن تَتَوَحّدَ» ..

كانَ ذلك في عام ١٩٢٠ .. وأهلُ تونسَ يُطالبون بالإفراجِ عن قائِدِهم الوطنيّ العظيم .. ويزدادُ تعلُّقُهم بِهِ يوماً بَعْدَ يومٍ فينتسِبُون إلى حِزْبِهِ أفواجاً أفواجاً ..



الرحلةُ الأخيرة
كانتْ طويلةً جداً

أطلقَتْ سفينَةُ الرُّكابِ صَوْتَ صافِرَتِها ثلاث مرّاتٍ .. وميناءُ تونسَ يَغصُّ بالنّاسِ المودِّعِين الغاضِبين .. وخالي ، مِنَ السفينَةِ يُلَوِّحُ لنا بِيدَيْهِ .. والنّاسُ غاضِبون .. والسّفينةُ تبتَعِدُ .

- إلى أين أنتَ مُسافِر يا شيخ عبدالعزيز ؟

- أنا لستُ مُسافراً .. أنا منفِيٌّ إلى خارجِ تونسَ .. هكذا شاءَ المستعمرون الظّالمون .

- ومُدّةُ النفي ؟

- إلى الأبدِ .. هؤلاء (الحضاريّون الانسانيّون) قَرّروا حِرماني مِنْ رُؤيَة وَطَني إلى الأبد ..

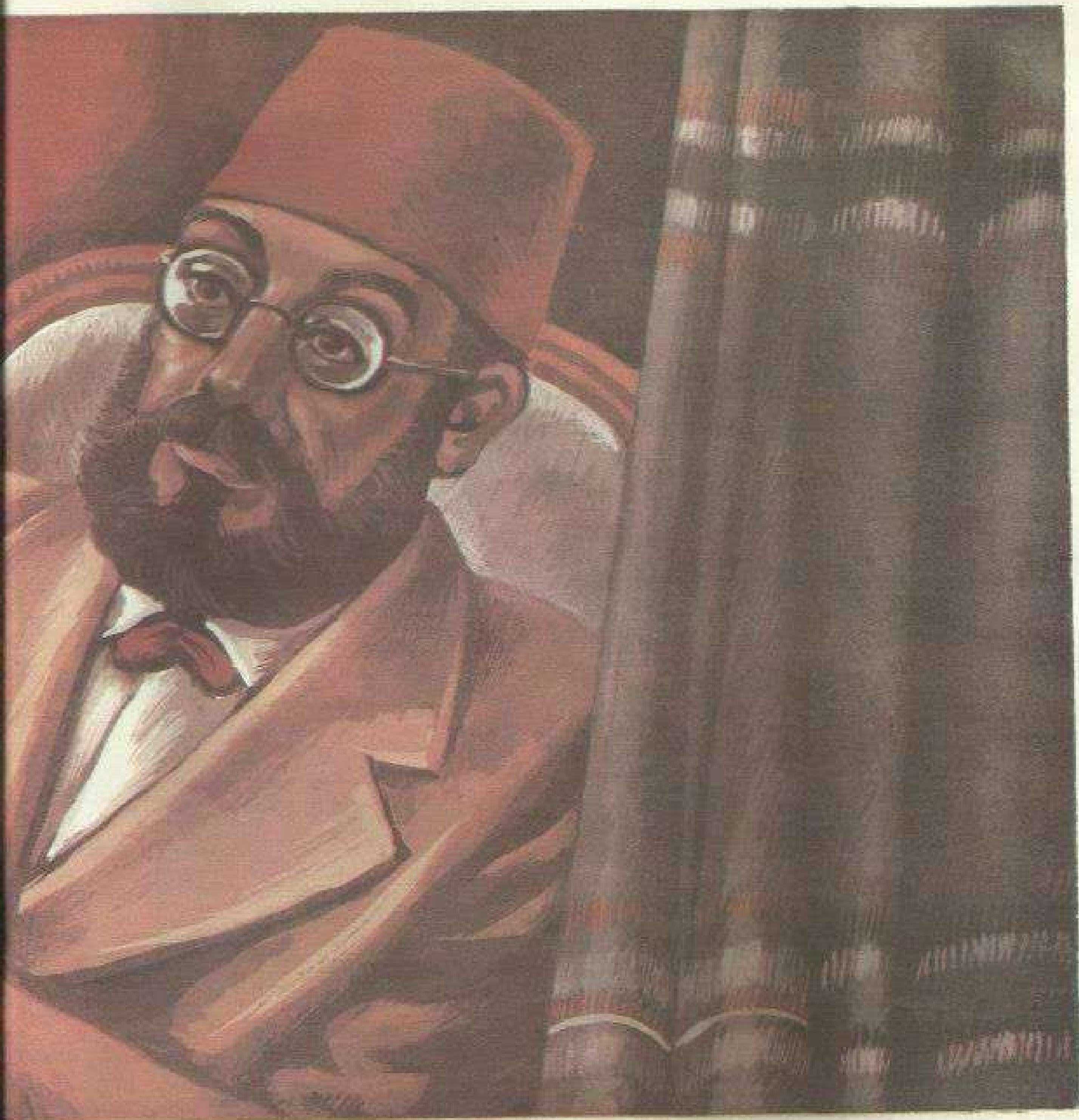
كان الشيخُ عبدُ العزيزِ غاضباً جداً هذهِ المرّةَ . وكانَ ، حينَ تحدّثَ عنِ

الحضاريّين الانسانيّين، يَهُزُّ بيدِهِ نُسخَةً من جريدةٍ فرنسيةٍ عليها تاريخُ سنةِ ١٩٢٣. كانتْ جريدةَ ذلكَ اليومِ.

والنّاسُ، كُلُّ النّاسِ في تونس لا حديثَ لهم إلاّ عنِ الشّيخِ الثّعالبي. والقناعةُ أكيدةٌ بأنّهُ سوفَ يعودُ خِفْيَةً ويقودُ الحركة الوطنيّة .. ولكنَّ السّفينة التي مَضَتْ بعيداً رَسَتْ بهِ في ميناءِ الاسكندريّة بمِصْر .. ثُمّ سافر الرّجُل العظيم إلى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والحجاز والخليج العربيّ واليمنِ .. في بغدادَ وَحْدَهَا عاشَ خَمْس سنواتٍ .. وشُعَراءُ بغدادَ يتسابقون الى تكريمِهِ والحفاوةِ بِهِ .. وشاعِرُهم جميل صدقي الزّهاوي يحيّيهِ قائلاً:

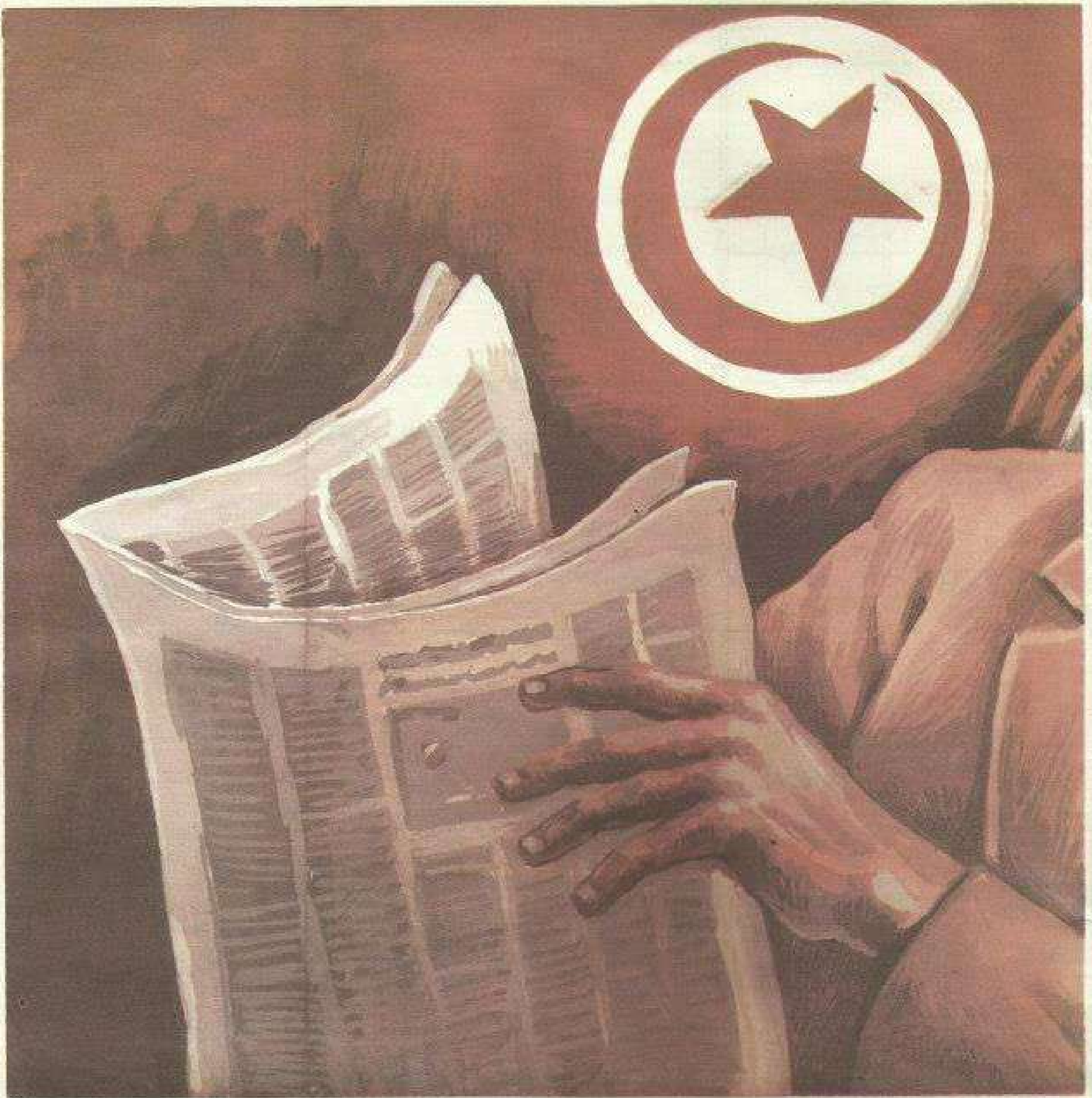
أحَيّيكَ يا عبدالعزيز تحيّةً ... لها الحبُّ أمٌّ والوفاءُ لها أبُ
أحَيّيكَ مِنْ ضَيْفٍ لبغدادَ نافَسَتْ ... بهِ فهي عن إحساسِها اليومَ تُعْرِبُ





وشاعرُهُم معروف الرصافي يرى فيه تونسَ كلَّها فيقولُ في تكريمِهِ:

أتونسُ إنَّ في بغدادَ قوماً ترِفُّ قلوبُهُمْ لكِ بالودادِ
ويَجْمَعُهمْ وإياكِ ٱنتسابٌ إلى مَنْ خُصَّ منطقُهم بضادِ
أتونسُ إنَّ مَجْدَكِ ذو ٱنتماءٍ إلى علْيا نزارٍ أو إيادِ



ويسألون الرصافي أنْ يحدّثهم عن الشيخِ الثعالبيّ فيقولُ : إنهُ أعظمُ خَطيبٍ عَرَفَتْهُ أمّتُنا العربيّةُ ..

ويسألونَ الشيخَ عزَّ الدينِ القسّامِ أنْ يحدّثهم عن الشيخِ الثعالبيّ فيقولُ : إنهُ بَطَلٌ عربيٌّ عَظيمٌ .. شاركَ معنا في الثورةِ المسلّحةِ ضِدَّ

الصهاينةِ والانكليز في فلسطينَ ، ولهُ فَضْلٌ في وَضْعِ الأُسُسِ التنظيميَّة لهذهِ الثَورَةِ المُسَلَّحَة ..

ويسألون عنه أهل دمشق فيقولون : إنّه طاقة فكرية رائعة .. وانَّ ذهنه الوّقاد منارةٌ وطنيّة ، سواءٌ في مقالته أو خطاباته أو أحاديثه الشَيِّقة المفيدة .

ويسألون عنهُ أهلَ بيروت فيقولون : الثعالبيّ رَبَطَ حَرَكَةَ التحرُّرِ الوطني في أقطارِ المغربِ العربيّ بحرَكَةِ التَحَرُّرِ الوطنيّ في أقطارِ المشرقِ العربيّ .

ويسألونَ عنه أهلَ القُدسِ فيقولونَ : الثَعالِبيُّ دَلّنا على طريقٍ قويمٍ كَفيلٍ بالتَصدّي لمخَطّطاتِ الصهيونيّةِ وإفشالِها .. وكَمْ نَصَحَنا بأنْ نُنْشِيءَ في القدسِ جامعةً إسلاميةً على غِرارِ الجامعِ الأزهرِ بمِصر !!

ويسألونَ عنهُ أهلَ القاهرةِ فيقولونَ : الثَعالِبيّ ـ حَسَبَ عِلْمِنا ـ أوّلُ مَنْ نادى بِتوحيدِ الأمّةِ العربيّةِ مِنَ المحيطِ إلى الخليج ..

ويسألون عنهُ أهلَ تونس فيقولون : غابَ عنّا الثعالبيُّ ثلاثَ عشرةَ سنةً .. حتى عادَ إلينا رَغْمَ أنفِ المستعمرين ، في عام ١٩٣٦ ، عادَ إلينا لِيَدْعو إلى توحيدِ أقطارِ المغربِ كخطوةٍ لتوحيدِ المغربِ كُلّهِ مع بَقيةِ الأقطارِ العربيّةِ .. فكانَ جوابَ المستعمرينَ أنْ أرسَلوا إليه مَنْ أطلَقَ عليه النارَ غَدْراً .

ـ وَهَلِ اغتالوهُ ؟

ـ نجا من الموتِ باعجوبةٍ .. وقُتِلَ بعضُ الذينَ كانوا حولَهُ ..



تُرى هل عَرَفْتم قِصَّةَ خالي عبدالعزيز الثَعالِبيّ ؟

الجمهورية العراقية ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال



الناشر : دار ثقافة الاطفال ـ ص . ب . ١٤١٧٦ بغداد

ثمن النسخة داخل العراق ١٥٠ فلساً عراقياً

وخارج العراق ٣٥٠ فلساً

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

(٦٥) لعام ١٩٨٤

توزيع الدار الوطنية للاعلان والتوزيع

دار الحرية للطباعة ـ بغداد